صقر أبو فخر

تنبيه الأنام إلى «أحوال المرأة في الإسلام»

منصور فهمي (١٨٨٦ ـ ١٩٥٩) واحد من كبار المتنوِّرين المصريين، وأَحدُ روّاد النهضة الحديثة الذين وارتِ الحركاتُ السلفيةُ المختلفةُ آراءه وأفكارَه، وأهالت عليه ركاماً من الصمت والحِرْم والتكفير، ومنعتْ ـ بسَطْوتها، وانحباسِها داخل خيوط عناكبها ـ انبثاق أفكاره النقدية والمتجددة التي حاول إطلاقها في فضاء الفكر العربي الحديث.

جاء منصور فهمي مع بداية هذا القرن المصطخب والمكتظّ بالأفكار والعقائد، وزامَنَ قاسم أمين وطه حسين وعبد العزيز هيكل، وحاول أن يُسهم معهم في إعلاء أفكارهم وفي دعوتهم إلى التنوير والنهوض والتقدم والمساواة والعدالة الاجتماعية. لكنّ حظَّه من الدنيا كان بائساً، فثارت في وجهه دبابيرُ الأعشاش كلها، في حين كان حظُّ وصفائه أفضلَ بكثير: فقاسم أمين، صِنْوه في الدعوة إلى تحرر المرأة، كان حذِراً محترساً، فلم يتعرَّض في كتاباته للدِّين بل لبعض رجال الدين... وأما منصور فهمي، تلميذ دوركهايم والمتشبِّع بالروح النقدية للنهضة الأوروبية، فلم يخشَ السلطات الدينية والمدنية، بل تَجَرّأ على محرَّماتها، فتجرأتْ عليه، وتمكنتْ من إقصائه عن الجامعة والتدريس الجامعي.

*

كتاب **أحوال المرأة في الإسلام***، في الأساس، أطروحة دكتوراه جريئة ورائدة، نوقشتْ في جامعة السوربون سنة ١٩١٣. وفور عودة الكاتب إلى مصر تعرَّض لهجوم شرسٍ من الأوساط الدينية والأكاديمية ألجأتِ الجامعةَ المصريةَ إلى محاكمته بتهمةِ «إعدادِ أطروحةٍ مضادَّة للإسلام وللنبي»، وتمكَّن خصومُه من إزاحته عن التدريس. غير أنّ ثورة ١٩١٩ الدستورية أعادته إلى الجامعة، ولكن حادثة إقصائه تركتْ في نفسه ندوباً وجروحاً، فانزوى في مكتبه، واحتجب عن المجتمع والناس بعدما خاب أمله في الثقافة والمثقفين والفكر والمفكِّرين. وكتابه هذا جرى طمسُهُ لأربع وثمانين سنة، حتى أسعفته الأيّامُ بمن يهوى النبشَ في المطمورات، فخرج إلى النور مجدَّداً ليعيد تذكيرنا بأحد الدارسين المجدِّدين في هذا القرن الآفل. فقد ظلّ حبيسَ

* ـ د. منصور فهمي: **أحوال المرأة في الإسلام** (كولونيا: دار الجمل، ١٩٩٧).

إن إخطر ما يخيف الرجل العربي والمسلم هو أن تتحرر امرأته

محفوظات السوريون وغبائرها ولم يترجمَ قطّ إلى العربية إلا عندما تصدّتْ «منشورات الجمل» لهذه المهمة الجليلة، بعدما كان المناضل الجزائري محمد حربي كَشَفَ النقاب عنه ونَشَرَه بالفرنسية رداً على التيارات السلفية التي راحت تُطلّ برؤوسها الناشفة وبفؤوسها الحادة بلا وجل أو خجل.

بين يدي الكتاب

الكثيرون من أنصاف الكُتّاب حرّضوا على تجاوز التراث وعلى القطيعة معه، لكنّ هؤلاء لم يحرصوا على مواجهة التراث مواجهةً فاعلة وحكيمة، بل إنهم لم يخوضوا معركةً حقيقية ونقدية واحدة ضده. غير أنّ منصور فهمي خاض معركته حتى النهاية شبهَ وحيد، فكانت نهايةُ معركته هي، في الوقت نفسه، نهايتَه الشخصيةَ والفكريةَ كرجل شجاع؛ ذلك لأنه تجرّأ على المحرمات الشائعة والسائدة وأفصح، بأوضح ما يكون الإفصاح، عن آرائه بلا خوف أو وجل. فتعقّب مظاهرَ «الانحطاط المتزايد للمرأة المسلمة الذي لم يستطع النظامُ النظري المتضمن في القرآن أن يمنعه» (ص ٨). ورأى «أنّ انحطاط المرأة المتواصل استمر عدة قرون بعد مجيء الإسلام» (ص ٧٥) بعدما كانت في الجاهلية أكثرَ تفوّقاً إذا قارناها بالمرأة في الإسلام؛ فقد كانت الجاهلية «تشارك في الغزوات، وتعمل في التجارة، ولها الحرية في أن تعتنق الدينَ الذي يناسبها من دون أن تَتْبع إرادة زوجها» (ص ١٢) ثم «جاء الإسلام، بمؤسساته المختلفة وقوانينه التيوقراطية والعواقب التي أسفرتْ عنها، وغيّر المفاهيم والسلوك، وهكذا شُلّت حركةُ المرأة» (ص ١٣). وبعين عالم الاجتماع رأى أنّ «السبب الرئيسي لانحطاط المرأة هو فصل النساء عن الرجال، وعزلةُ المرأة» (ص ٩٣).

إنّ أخطر ما يخيف الرجلَ العربيَّ والمسلم، في الماضي وفي الحاضر، أن تتحرر امرأتُهُ. فالمرأة، في نظره، قنبلةٌ موقوتة لا يتجرأ مسلمٌ على فتح الأقفال عنها. لكنّ منصور فهمي تجرأ، جرأةً لم يطاولها أحدٌ قبله، على التقاليد الراسخة وعلى العقائد المستقرة، فَنَعَتَ النبيَّ بأنه «الناطق الرسمي باسم الألوهة» (ص ١٠٧)، ورأى «أنّ رسول الله تحت ضغط صاحبه عمر قد صاغ الأمرَ الإلهيَّ لوضع العراقيل للعلاقات الحرة بين الرجال والنساء» (ص ٥٢)، ثم خَلص إلى القول: «نظرياً أراد محمد أن يَنْهض بشأن المرأة، إلا أنّ الإسلام ـ على نقيض نواياه ـ حطّ من مكانتها» (ص ١٥) وفرض عليها العزلةَ والحجابَ «الذي هو حصيلةُ التقاليد وليس الدين» (ص ٥٥). ولم تكن وظيفةُ الحجاب حجبَ وجوه النساء وجمالهنّ عن العيون، بل «التمييز بين الطبقات الاجتماعية» (ص ٥٥)؛ فالحُرة هي التي كانت تلبس الحجابَ بينما الجارية لا تحتاج هذه الأداة المهينة.

*

للدكتور طه حسين تعبيرٌ مختصر ونافذ يكاد يوجز واقع حال العرب اليوم فهو يقول: «ويلٌ للأمة العربية إذا تركتِ الطبَّ الحديث ورجعتْ إلى ابن سينا». والفكر العربي عاش تاريخه المعاصر انحطاطاً وسقوطاً وهزيمةً وعجزاً أمام التقدم الهائل والمتسارع للعلم والتكنولوجيا وللحضارة معاً. وبالفعل فإنّ من ويلات العرب اليوم سطوةَ بعض المراكز وتنمُّرَها على الفكر النقدي وعلى المفكرين العَلمانيين النقديين. إنّ اللجوء إلى الشيخ شعراوي وقرضاوي وأضرابهما، والانصرافَ عن منصور فهمي وطه حسين وأمين الخولي ومحمد أحمد خلف الله وصادق جلال العظم ونصر حامد أبو زيد ومحمد سعيد العشماوي وأمثالهم، فضلاً عن محاربتهم والكيد لهم، من شأنه أن يجعلنا نقف أمام التقدم العلمي الهائل كعجائز الأرياف نكاد لا نعرف حيال هذا الجديد الوافد سوى النقمةِ والحسدِ والتكفير... مع الإعجاب الخفي! وهذا ما حاول منصور فهمي منعَهُ والتصدي له، لعلّ المجتمع العربي تتاح له فرصةُ الانخراط في العصر والحضارة والعلم. فرأى أنّ المدماك الأول، بل الأساس الأولى، للخروج من محنة المراوحة هو تحرير المرأة ومساواتها بالرجل، وإزالةُ المعوّقات التي أقامها الرجلُ والدين والتقليد أمام انطلاقها الحر في المجتمع.

لم يحترم منصور فهمي، السوسيولوجي وتلميذ دوركهايم والمنغمس في اكتشاف الحقائق، أيَّ شيءٍ سوى الحقيقة، وحاول أن يعيد الصلة، من طرفٍ خفيّ، بالتراث العقلي للمعتزلة الذين لم يترددوا في محاكمة بعض الصحابة بشدة والقول فيهم كلاماً لو قرأه المسلمون اليوم لاصفرّتْ وجوهُهُم واندلقتْ ألسنتهم إلى ذقونهم. ومنهج

منصور فهمي في البحث منهج نقدي مُحْكَم، فهو لا يبحث عن النصوص ليناقشها أو ليفنِّدها، بل يهتدي بها للوصول إلى معرفة البنية الذهنية العربية ولاكتشاف العناصر الفكرية والوجدانية والنفسية للمجتمع العربي الذي أنتج مثل هذه النصوص.

*

لكنّ السؤال المهم في هذا السياق هو التالي: لماذا لم يَثْبتْ منصور فهمي عند أفكاره؟ ولماذا لم يستمرّ في الدفاع عنها في سنوات عمره المتأخرة؟ وما هي العوامل التي ألجأته إلى التراجع عن الكثير من آرائه، ولاسيما آراؤه في المرأة وأحوالها؟

دخل منصور فهمي في صمت عجيب منذ فصله من الجامعة حتى عودته إليها في سنة ١٩١٩؛ فلم يكتبْ ولم ينقدْ ولم يحاججْ ولم يساجِل البتَّة. وكان من المتوقع أن يعود إلى المنافحة عن أفكاره بعد ثورة ١٩١٩، ولكنّه لم يفعل، بل أصابه ما أصاب عبد العزيز فهمي هيكل وعلي عبد الرازق وطه حسين الذين تعرضوا - بدورهم - لهجوم متنوّع الجبهات بسبب أفكارهم التي أثاروها وقتذاك وعارضوا فيها ما هو سائد وموروث وراسخ في المعتقدات الشائعة.

ثمة غموض، بلا شك، يحوط بالأسباب التي أدت إلى المصير الذي آل إليه منصور فهمي. ومن غير الواضح هل غيّر منصور فهمي معتقداته حقاً، أم آثر الصمت والانزواء والعزلة والسلامة؟ ذلك لأنه لم يُصدِر بعدَ كتابه **أحوال المرأة في الإسلام** سوى كتابٍ واحد سنة ١٩٣٠ بعنوان: **أبحاث وخطرات** احتوى مقالاتٍ معدودةً نشرها متفرقةً ولا تتضمن إلا القليل من الفكر والكثير من التأملات.

إنّ التبدلات التي تطرأ على معتقدات المفكرين وعلى آراء المشتغلين بالفكر بعد خمسينات أعمارهم يفسِّرها بعضُ النقاد والدارسين والمحلِّلين بالنضج والاكتساب. فهم يربطون الراديكالية بسنوات الشباب الأولى وبالحلم في تغيير العالم؛ حتى إذا أدمَتْ صخرةُ الأيام قرونَ الأيائل ارتدّ أصحابُها مُتْعَبين يحاولون أن يتبصروا في الأسباب والعلل والنتائج، فتهدأ فيهم غريزةُ التحفز والتوثب، ويتقدم العقلُ المحض على الحماسة الزائدة ليعيد الهدأة إلى الوجدان المتوتر. وهذا، بالضبط، ما جرى لطه حسين الذي بدأ حياته الفكرية الصاخبة بالتشكيك في أصل التراث الجاهلي، ليعود ويكتب **حديث الأربعاء**... وهو ما جرى

هل ينتهي المتجرِّئون على المسلّمات إلى الصمت أو الانتحار أو الانخراط في السائد؟

لعلي عبد الرازق الذي عاد طائعاً إلى هيئة علماء الأزهر التي كانت طردته بعد صدور كتابه **الإسلام وأصول الحكم**... ولعبد العزيز فهمي هيكل الذي تراجع عن آرائه في رسم كلمات اللغة العربية وعدم تحريك أواخر الكلمات... ولشوقي بغدادي الذي يغازل الآن التيارات الإسلامية مَدَّعياً أنه لم يغادر قطّ معتقداته الدينية حتى عندما كان شيوعياً. ولعلّ الدكتور عبد الرحمن بدوي، الفيلسوف الوجودي الذي قرأناه مدافعاً عن المستشرقين وعن التفكير العقلي الأوروبي الحديث ذي المرجعية الإغريقية وكذلك عن الشك والقلق والإلحاد، هو آخر المرتدِّين على بواكيره؛ فها هو في سنة ١٩٩٧ يفاجئ الناس كلهم فيُصْدر كتاباً بعنوان **دفاع عن القرآن ضد منتقديه** يهاجم فيه المستشرقين متهماً إياهم بالتبشير والتعصب.

ويبدو التغيُّر المفاجئ في معتقدات المفكرين والانعطاف الحادّ عن الأفكار التي اشتُهروا بها مثل التناقض بين حدين أو كالتوتر بين قطبين؛ إنّه جدل الفكر والزمن. كأنّ هذا الجدل نوع من الموت المعنوي للمفكر القديم ومحاولة، في الوقت نفسه، لانبثاقٍ فكريٍّ آخر. فالمفكّر عندما يتخلى عن أفكاره الراسخة وينبري للدفاع عن معتقداتٍ مغايرةٍ يقتل الإنسان الذي كان، أي الإنسانَ الذي وَسَمَتْه أفكارُه بميسمها وشكَّلَتْ كيانَه الفكريَّ على غرارها. وذلكم ضربٌ من الانتحار المعنوي يوازي الانتحار المادي إلى حد بعيد.

وربما غير بعيد من هذا ما حدث للمفكر المصري - التركي إسماعيل أدهم الذي وُلد سنة ١٩٥٠ لأسرةٍ كادحة فلم يُصِبِ الكثيرَ من العلم، لكنه كان حادَّ الذكاء ولم يكن يملك إلاّ هذا الذكاء يواجه به المجتمع، فأقنع الناسَ بأنه مستشرقٌ تركيٌّ حاز الدكتوراه من روسيا. وصدَّقَتِ الصحف المصرية حكايتَهُ، وراحت تنشر له دراساته ومقالاته. ثم ألّف كتاباً بعنوان **لماذا أنا ملحد؟** وعاش حياة غريبة، فكان ملعوناً ويائساً ومهملاً، وظلّ البؤس المادي والشقاء المعنوي يسيطران عليه، حتى انتهى الأمر به إلى الانتحار بإلقاء نفسه في البحر على شاطئ الإسكندرية في تموز ١٩٤٠.

ترى هل كانت هذه النهايةُ البائسة مصيرَ معظم الذين تجرأوا على المسلَّمات والمقدَّسات والمحرَّمات وعلى الأفكار الشائعة والآراء الراسخة، فانتهوا إما إلى الصمت مثل منصور فهمي؛ وإمّا إلى الانتحار مثل إسماعيل أدهم، وإما إلى الانخراط في المؤسسات السائدة مثل علي عبد الرازق وغيره؟

بؤس الترجمة

لسوء طالعنا، نجد أنفسنا مرغمين دوماً على النقر على أصابع المترجمين جرّاء ما يقترفونه، يومياً، بحقّ العلم والمعرفة والثقافة. وقد عجبنا، أيّما عجب، كيف أنّ مترجماً من عيار هاشم صالح ذا دراية وخبرة في قضايا الترجمة تخرج من بين يديه أغلاطٌ جمةٌ في هذا الكتاب. فإذا كانت المترجمة «رفيدة المقدادي» ذاتَ معرفةٍ متواضعةٍ بالتاريخ ومصطلحاته وأعلامه، فما بال المُراجِع هاشم صالح تجوز عليه هذه الأغلاطُ التي لا تُغتفر؟ فقد وردتْ في الصفحة ٢٩ عبارة «الشقراء الصغيرة» صفةً للسيدة عائشة بنت أبي بكر، والصحيح: الحميراء؛ فقد جاء في الحديث: «خذوا نصفَ دينكم من هذه الحميراء»، والحميراء تعني: ذاتَ الشعر الأحمر، أي الشقراء. وللأسف قامت المترجمة بتعريب الكلمة ثم عمدتْ إلى تصغيرها؛ ولمّا لم تجد تصغيراً ملائماً لكلمة «أشقر» كـ «شقيراء» مثلاً اختارتْ أن تترجمها إلى «الشقراء الصغيرة». ولو عادة المترجمة إلى المصادر المعتبرة لوجدتِ العبارةَ بلفظها وتمامها. لكنّ الكسل العِلْمي وعدم الدراية لا يضرّان بصاحبهما فقط، بل بالعِلْم أيضاً.

وفي الصفحة ٣١ ورد اسم «أمّ سلامة»، ثم جاء الاسم نفسه في الصفحة ٣٩ ولكنْ بصيغة أخرى: «أم سلام». والصحيح في كلتا الحالتين «أم سَلَمَة»، وهي الزوجة السادسة للنبي محمد، واسمها هند بنت أبي أمية.

وفي الصفحة ٥٣ وردتْ كلمة «الملاخ» والصحيح: الملاءة. كذلك وردتْ عبارة «الجنرال عمرو بن العاص» في الصفحة ٥٧؛ واذا تجاهلنا إمكانَ ورودها للتهكم فقد كان يجب ترجمة كلمة «الجنرال» بـ «القائد»، إذ إنّ عَمْراً لم يكن ذا رتبة عسكرية في تلك الأيام. وفي الصفحة ٥٨ جاء اسم «الفقيهي» وهو غلط؛ أما الصحيح فهو: «البيهقي». وجاءت في الصفحة ٦٠ مدينة «كاستيليا»، والصحيح «قشتالة». وتكررتْ في الصفحات ٦٥ و٦٦ و٧٧ كلمة «الموضة»، ونحن نرى أنّ من غير اللائق ترجمة كلمة Mode أو Model بـ«موضة» بل بـ«زيّ»؛ فبدلاً من القول «موديلات الشتاء» مثلاً نقول: «أزياء الشتاء». كذلك عَبَّتِ المترجمةُ بكلمة Mosline في الصفحة ٦٧ فترجمتها بـ «النسيج الموصلي»؛ صحيح أن أصل هذا النسيج من الموصل، إلا أنّ كلمة «موسلين» صارت مصطلحاً لا يُعرَّب مثل «الدمقس» و«البروكار» في الشام؛ فلا نترجم الدمقس بـ «النسيج الدمشقي» إلا إذا كنّا نبغي شرحَ معنى المصطلح وأصله. وفي الصفحة ٧٨ جاءت كلمة «السُّمارية»، والصحيح: السامريون. وفي الصفحة ١٤٠ قرأنا عبارة «شريعة الذحل»؛ وهذا تقعُّر لا طائل منه، وكان الأفضل استعمال «شريعة الثأر» لا الذحل. وأوردتِ المترجمةُ في الصفحات ٢٤ و٤٦ و٤٧ مصدراً عنوانه **حصن الأسوة** ولعله **حُسن الأسوة**.

والأنكى من ذلك كله أنّ المترجمة عمدتْ إلى ترجمة الأحاديث النبوية بدلاً من التفتيش عنها في مظانّها ومصادرها المعتبرة. ففي الصفحة ٤٤ على سبيل المثال تحوّل الحديثُ المشهور «لن يفلح قوم ولّوا امرأةً أَمْرَهُم» إلى: «لن ينجح شيء من هؤلاء الذين يقبلون أن تحكمهم امرأة». كذلك أوردتْ حديثاً غريباً على لسان عائشة بالصيغة التالية: «إنّ النحل أكل زهراً ذا رائحة كريهة». وهذا الحديث، بهذه الصيغة، فيه أغلاط عدة متراكبة:

فمن المعروف، أولاً، لكلّ ذي بصرٍ وبصيرة أنّ النحل لا يأكل الزهر بل يشتار منه العسل؛

ثم إنّ الصيغة الصحيحة للحديث هو التالي: «رَعَتْ نحلُه العرفطَ». أما حكايته فهي أنّ عائشة كانت تغار من ضرّتها الجميلة زينب بنت جحشٍ فاتفقتْ مع حفصة بنتِ عمر وسودة بنتِ زمعة زوجَتَي النبيّ أيتهنّ دخل الرسولُ عليها بعد انصرافه من عند زينب فلتقلْ له: «أكلتَ مغافير؟ رَعَتْ نحلُه العرفط». والمغافير ثمر حلو كريه الرائحة، وربما هو صمغ ذو رائحة كريهة يسيل من بعض الشجر؛ والعرفط هو الشجر الذي يحمل المغافير، وكان النحل يشتار منه أعسالاً غير جيدة. وقد حرم النبيُّ نفسه شربَ العسل عند زينب. وهكذا بدلاً من جملة بثلاث كلمات هي: «رَعَتْ نحلُه العرفط» صار الحديثُ على هذه الشاكلة: «إنّ النحل أكل زهراً ذا رائحة كريهة»؛ وهذا من غرائب هذه الترجمة وعجائبها.

فتبصّروا!

بيروت